

السرد الاصطناعي ، الايهامي ، الحقيقي في رواية "الولي الطاهر" لوطار

أ. عزاني العارم
جامعة سطيف - الجزائر

محمّد

لقد قيل الكثير عن السرد تنظيرا وتطبيقا بدءا من الانشغال الغربي ومرورا بمثيله العربي ، وذلك من خلال ملامسة أبرز النقاط الشاملة له كالحديث عن التبشير / الزمن / المكان / ... إلخ ، غير أن الجدير بالاهتمام هو تلك المقاطع التي يمارس فيها السرد بكل حرية وبعيدا عن كل اشتباه ، إلا أن تلك المقاطع ندقق فيها للوصول إلى أصغر نواة فيها ، إنها وبلا ريب الوحدة اللغوية السردية ، لتتبلور أسئلتنا على نحو مندفع لا يعرف التوقف ، فهل تتساوى وحدات السرد على مستوى النص السردى ؟ وهل هي كلها من طبيعة واحدة ؟ ألا يوجد فرق بين وحدة سردية وأخرى ؟

أصاؤنا ستسلط على مجموع الوحدات اللغوية المفردة الصانعة خطية لفظية داخل حيز السردى ، في محاولة منها للوصول إلى نتيجة بخصوص تصنيفات السرد انطلاقا من وحداته السردية ذات الطبيعة اللغوية ، فما الذي يمكن أن يسفر عنه هذا البحث ؟

أولا- الوحدات اللغوية المفردة :

1 - تفعيل الماقبل والمابعد :

لدينا مجموعة من الوحدات اللغوية *unités linguistiques* ، محصورة في عدد متناه داخل نسيج النص *Le texte* ، وهي متموقعة إعرابيا بشكل شبه غير موحد ، غير ثابت ، كوحدات المضاف إليه : الزيتونة / الرملية / الشمس / القبلية / الظل / السماء ، أو وحدات النعت : الطاهر / الزكي ، أو الفاعل : الإخوان / الأخوات أو الاسم المجرور : القصور / دھول .

تواجد ثر، مع انعدامية الثبوتية، إذ الوحدات نفسها تنتطع في حركة متبدلة الأدوار بين ما ذكره بين: اسم كان، اسم إن، الاسم المعطوف، عطف البيان أو البديل، المبتدأ، المفعول به، الخبر. تلوينات صديغة ظاهري النسيج النصي، "يهيمن عليها إحكام داخلي حسب قواعد التناسق والترتيب والتصنيف "1، عرف في الدرس العريسي باصطلاحات متباينة، فهو عند الجرجاني "النظم"، وعند الفيلسوف ابن سينا "التأليف المخصوص"، وسيتم التوقف عند معالم تلك الوحدات اللغوية المضردة إضاءة، ولكن، ما الملاحظ عليها؟

لتجلية الوضع لا بد من العودة إلى مجموع الوحدات اللغوية المضردة داخل النص، والتركيز على أهم ركن فيها أصل عليه بناؤها، وذلك من خلال الوقوف على القيمة الوظيفية التي هي حاصل ما تؤديه الوحدات بعد تفعيلها داخل النسيج النصي، فوجودها براء من دائرة الأبعاد العدمية، مرتتهن في الآن نفسه بالابتعاث داخل دائرة الأبعاد الوظيفية، لصيق الكينونة بغاية معينة على تلك الكلمات أن تصل إليها، وإن اشغلت على ذلك وحققته فتلك هي الوظيفة fonction المحددة لها داخل أي نسيج نصي، وملاك الأمر بمحاولة القبض على المعنى Le sens، والسؤال الملحاح، لماذا المعنى؟

النص. على العموم. لا يدور نسيجه في فراغ بقدر ما هو استجلاء لجوهر، من طبيعة مجردة، وثيق الصلة بمجموع النواقل المرتسمة من خلال تلك الخطيات اللفظية، كوجود عيني، مبني وفقا لنظام مخصوص، وبمجرد استخدام عناصره، تبدأ في الاشتغال للتأسيس لمعنى ما و"المعنى هو مجموع تلك العلاقات القائمة بين الكلمات وما يمكن أن تدل عليه"2، فوحدات: "الزيتونة / الرملية / الطاهر / الشمس / الظل / القبلة" ... إلخ، لا تدور في العدم، كما لا تنطلق منه، خصوصا وأنها موجودة داخل النص، بمعنى آخر، تشهد حالة من الارتباط أو التعالق مع عناصر أخرى موجودة داخل النسيج النصي والخاضع لنظام مخصوص، فيؤدي ذلك إلى تكوين علاقات فيما بينها، مما ينتج عنه المعنى، ولهذا السبب نجد الوحدات اللغوية منفردة لا تحقق معنى بأي وجه من الأوجه. فالبدء إذا، هو العلاقات القائمة بين كلمات النص، والمنطلق في ذلك كله عبارة أوسيب بريك o. breake

1888. 1945 التي قال فيها: "لا أؤمن بالأشياء وإنما أؤمن بالعلاقات التي تقوم بينها"3. فالأشياء موجودة سلفا كما هي الوحدات اللغوية المضردة، ولكن العلائق هي

الناتج الجديد في حياة النص ، تنشأ تاليا بشكل تعكس من خلاله ولأء حميميا للتغير والاستقرار ، ضمن نسيج ضام لها داخل كيان لا حياد عنه ، إنه بلا تردد ، النص .

تتجه تلك العلاقات يمنة ويسرة الوحدات اللغوية المفردة ، فيسمى تعلق كل " عنصر بما سبقه علاقة قبلية ، وتعلقه بما يلحقه علاقة بعدية " 4 ، لتحديد بذلك أولى الخطوات التي تقودنا لرسم أول معلم لمجموع المقولات التي تعالج استراتيجيتنا ، غير أن صورة الما قبل L avant والما بعد L après غير محددة ، بل هي حرة تشتغل داخل النص بطلاقة ، قد تقام علائقها مع ما قبلها ، أو ما بعدها ، وفي مرات آخر مع الركنين معا ، لا توجد قواعد تحد من صلاحية وظيفيتها المؤصلة على إنتاجية المعنى انطلاقا من علاقة الوحدة اللغوية المفردة بقرينتها ؛ لأن " لكل كلمة مع صاحبها مقام " 5 .

و إذا جئنا إلى شواهدنا فإن أول ما يطالعنا هو الوحدة اللغوية المفردة " المقام المرتبط ب : " التلة الرملية / الزيتونة الفريدة / " 6 باعتبار أول ما يقع قبله . أما وحدة " القصر " فتقيم علاقاتها باعتبار المابعد ، بدءا من الصفحة التاسعة والعشرين إلى غاية الصفحة الثالثة والثلاثين ، فقد ارتبطت مع " البنادق تسعل / الرصاص يغرد / المدافع تنبح / الدخان يصنع لون السماء الأزرق / الدماء تصبغ التراب والماء معا / امتلأ النهر بالجثث / دكن لون الماء / اسودت السماء / الخناجر تسئل / الأجساد تتساقط من كلا الطرفين / الحرب المقدسة / منظر سقوط الطائرة " . في حين الوحدة اللغوية " الطاهر " متعددة العلاقات مع ما قبلها المتجسد في الولي وهو : " يصلي ركعتين / تحية لله / قرأ الفاتحة وسورة الأعلى / توقف عند الآية سيذكر من يخشى / يسرنا ليسرى / ظل .. يرفع كفيه ويتضرع إلى الله بمختلف الأدعية " 7 ، وما بعدها المتصل أيضا بالولي غير أنه في حالة " ضعوا حول كل شجرة برتقال عدة ألغام / المدخل الرئيسي لغموه / اصلوه نارا / لا حي في الحي / لا تبقوا .. عدا من يعن لكم سبيهن / صوبت نحوه الكلاش / أمرت بخلع أبواب الغرف / ألهبنا فيكم النار / .. صببنا البنزين / وهي تمتد من الصفحة التسعين إلى غاية الثامنة والتسعين من النص .

وقد تتعدى العلاقة إلى علاقة الوحدة اللغوية المفردة بالتراكيب أو حتى المقاطع داخل النص وأخيرا النص في كليته ، المهم في الأمر هو توقف العلاقة على الما قبل

والمابعد ، وقد يكون ذلك توقفا قريبا أو بعيدا ، إذ ليس الشرط أن تكون الوحدة اللغوية المفردة لصيقة الكلمة التي تقع قبلها أو بعدها ، وبالتالي يكون هناك تقارب كما هو بين " الشمس / القبلة " ومتعلقهما القبلي " الاتجاه " كعنصر موحد بين الوحدتين في الصفحة الثانية عشرة من النص . في الوقت الذي ينكفئ فيه التباعد على وحدات من مثل " الزكي " المقرونة بالنص كله باعتبار الماقبل والمابعد ، ووحدة " القصر " المفعلة داخل النص في مواقع ثلاث ، الصفحة السابعة والعشرون ، الثامنة والأربعون ، التاسعة والثمانون . فالأولى شملت المقطع الممتد من الصفحة التاسعة والعشرين إلى غاية الثالثة والثلاثين ، الثانية من الصفحة الثامنة والأربعين إلى غاية السادسة والخمسين ، والأخيرة متوقفة على ما بين الصفحة التسعين إلى غاية الثامنة والتسعين من النص .

تحت هذه الظلال تشع أهمية الماقبل والمابعد ، بالنسبة للوحدة اللغوية المفردة ؛ لأنها " عضو متعاون في جسم كلي شامل هو القول utterance 8" ، محتكم إلى عملية النسج وفق طرائق مخصوصة وقواعد مضبوطة خاصة بكل لغة .

والآن يمكننا التعرّيج على الوحدات اللغوية التي تشمل: " العضباء " كنعت وقد أقامت علاقاتها منذ البداية مع ما قبلها " الأتان " ، فهي إذن ، " الأتان العضباء " كما ورد في الصفحة الحادية عشر . أو " الغيبة / حضرة / الحالة / كرامات / معجزات .. " 9" ، كوحدات مشتتة الكينونة داخل النص ، وهي متعلقة بالماقبل الموحد في صورة : " الولي " . كما لدينا أيضا : " الطوابق / الزوار / المقدم / المرقد / المريدين / القناديز / المقيّمات / المريدات / المقيّمات / الجناح / السبع / المربع " كلها متعلقة بالماقبل المتمثل في المقام على مدار الصفحة التاسعة عشر والعشرين .

وفي الأخير نستطيع إضافة وحدات : قلنسوات / لحى / حناء / جلابيب / الكحل / السواك / مسك .. " ، وهي متعلقة بـ " القوم " الواقعة قبلها في الصفحة التاسعة والعشرين ، وغير بعيد عن مثيلتها وحدات " الرايس / المجاهدين / الشهداء / السطايفي / فرنسا / جيا / رصاصات / لهيب / نار / انفجار / حربا / ألغام / ... " يتوزع تموقعها بين الصفحة الواحدة والتسعين والسابعة والتسعين ، فالماقبل الذي تعلقت به هو الجزائر . أما ما يعود على القاهرة الواقعة قبل وحداتها فمجموعة في : " الأزهر / الأهرامات / فسطاط / منصة / العريس / العروسة / النيل / المعبد / الفرعوني / .. " 10.

في هذا المقام تحديدا يجدر بنا الوقوف والتساؤل عن بعض الأمور التي لا ينبغي تجاوزها ، وبالتالي ، ماذا نلاحظ على المعاني المتولدة من علاقات الوحدات اللغوية المفردة السابقة ؟

أ- حاصل التفعيل:

بتأمل نتائج التعالق بين وحدات المجموعات السابقة وماقبلها ومابعدها نصل إلى أن حاصل العلاقة بين النيل والقاهرة ، معنى سليم يتصف بالمنطقية ، الصحة ، والواقعية ، في حين يكون الأمر بين الكرامات والولي مماثلا لما سبق إلا في نقطة واحدة فقط، حيث تغيب صفة الواقعية ، فهو مجرد متخيل دخل حيز السردى ، وإن استمد عناصره الأساس من ذكرى صورة ملتقطة من أرشيف ماضي البشرية البعيد لكن في نموذج "الطاهر" حاصل العلاقة معنى متضعع ، بعد تحطيم كل حدود المعقولة والمنطقية ، فتغدو الوحدات اللغوية المفردة مهددة بالإسقاط المقطعي من النص. إذ كيف يقف الطاهر بين الولي واللاولي، أو بتعبير أوضح، بين الولي في صلاته ركوعه، دعائه، خشوعه، ابتهاله لله، صلته به، باعتبار الماقبل، وبين المابعد المرتكز على سفك الدماء، السبي، الرصاص، الانفجارات. فهناك اجتماع للمتناقضات ليتسنى بذلك صناعة أصعب معادلة حاكها النص داخل نسيج أول ما يفترض فيه أن يكون متضام الأركان .

من هذا المنطلق ، يمكننا تصنيف الوحدات اللغوية إلى ثلاث مجموعات ، المجموعة الأولى تضم بين حنايتها وحدات لغوية تفرز معنى متضععا بعد تعلقها بالماقبل والمابعد ، وبالتالي فهي غير منطقية وغير معقولة ، والمجموعة الثانية تحتوي على وحدات خاضعة لميزان المنطق والصحة واللاواقعية ، أما المجموعة الأخيرة فتضيف إلى المنطقية والصحة عنصر الواقعية ، وما كان ذلك التصنيف إلا انطلاقا من تفعيل مبدأ الماقبل والمابعد ، بعده مقولة لسانية محضة ، الأصل فيه كل تعالق مع الوحدات اللغوية المفردة داخل النسيج النصي والمسؤول عن إنتاج المعنى سواء تم ذلك وفق صورة الماقبل أو المابعد ، فنكون بذلك أمام وحدات المجموعة الثانية والثالثة المحققة توافقا في المعنى بين وحداتها اللغوية المفردة وصور ما قبلها وما بعدها ، في حين تتفرد الوحدات اللغوية للمجموعة الأولى بلاتوافق معانيها مع الماقبل والمابعد إلى حد ضععة معنى النص .

2 - تجاوز مبدأ الاعتباطية :

إن ذلك المعنى المتضعضع لابد وأن يوجد له تعليل وإلا فإن وحدات المجموعة الأولى مهددة بالإسقاط المقطعي ، وبالتالي ، يستدعي الموقف منا استحضار لواحق الماقبل والمابعد مفتاحا لسد كل مجال للعبثية حتى لا تفتح نيرانه على الصناعة السرديّة ، ويستقر بجوارها فقد الأمل في العثور على أجوبة لأسئلتنا المعلقة في ظل ماسيق من طرح ، وبالتالي ، إمكانية استحضار باقي المقولات من مجموع المفاهيم الكبرى المتحركة في تشكيل معنى النص ، وذلك من خلال جهد يسعى لبناء طرح قامت أركانها على قطبين متناظرين يدعم أحدهما الآخرهما : إسقاط مبدأ الاعتباطية ، والبناء على القصديّة مفصلين على النحو الموالي .

أ - إحداث التجاوز :

النسيج النصي يعتمد جزئيا في مادته الخام على مجموع العلامات اللسانية *signes linguistiques* ، لتندرج فيما بعد من خلاله ضمن تصنيفات مترامية الانتماءات ، والملاحظ أن تفعيلها لا يتم إلا حال دخولها عالم التركيب ، فتخضع لنواميس تحكم في تصريفها حسب الوجهة المرغوب فيها ، إنها خدّم النص ، ويتجلى ذلك في ما يولده اشتغالها داخل النسيج النصي من معاني .

تلك المادة الخام قبل توظيفها ، موسومة بـ : " العلامة الألسنية " ، وهذا بالضبط ما يطلقه عليها العالم اللغوي فرديناند دي سوسير *F. de saussure* من خلال درسه المدرج تحت عنوان " محاضرات في الألسنية العامة " . فهي في نظره مجموع ما ينجم عن ترابط الدال بالمدلول ، وأهم ما يميز طرحه كون الرابط بين قطبي العلامة اعتباطي ، وبالتالي ، فـ " العلامة الألسنية ..اعتباطية " *arbitraire* 11 .

هذا الذي تطالعنا به أيضا مجموع الجهود التي اعتنى من خلالها الدرس الغربي كثيرا بفكرة العلاقة بين طريفي العلامة الألسنية ، بدءا من أفلاطون ، وقوفا عند ديموقريطس ، ووصولاً عند الرواقيين ، فالأصل عندهم أن الصدفة هي من أنتجت الأسماء ، ويبقى القاسم المشترك بين الطروحات مؤثلا على نفي وجود رابط طبيعي بين طريفي العلامة اللسانية " الدال " *signifiant* و " المدلول " *signifié* ، والمثال التوضيحي عن ذلك حسب سوسير فكرة " أخت " التي لا تحتوي على أي رابط

يشدها صوب الدال الذي هو تتابعات صوتية في الأصل ، والدليل على ذلك إمكانية تمثيل الفكرة السابقة بأي دال آخر ، وتلك هي الاعتبارية أي غير معللة 12 .

و الأغرب ، أنه داخل النسيج النصي تستخدم العلامة الألسنية على ذلك النمط ، فيغدو النص مشكلا " من نسق من العلامات اللسانية .. الاعتبارية .. في الجوهر " 13 والنص الذي بين أيدينا يعج بذلك ، فبجولة استطلاعية مثبتة لذلك نعثر على " عاصفة ، ملهى ، تاويان ، راقصين ، ديناصورات ، تماسيح ، بطون ، الخلف ، النفق ، قارورة ... " من الصفحة التسعين إلى غاية الصفحة الواحدة والتسعين ، ولدينا منها المزيد نستثمره من صفحة واحدة فقط ك : " المدفعية ، طائرة ، الحديد الأذرع ، البنادق ، الأرض ، السماء ، نارا ، قذيفة ، " 14 . كلها محسوبة على سيرة العلامة الألسنية ، وصفتها قائمة على غير التعليل ، دون نسيان انتمائها إلى المجموعة الثالثة .

من زاوية أخرى تطل علينا : " الأربعة ، آذانها ، سبعة ، الزوار ، البركات ، السابعة حجب " ، عينات موزعة ما بين الصفحة الواحدة والعشرين و الخامسة والعشرين ، وصولا عند شواهد " صوفية ، الذكر ،

الحضرات ، القطب ، الأنوار ، الوجد ، العرض ، الجوهر ، الولاية ، النورانية " 15 . ، وهي من المجموعة الثانية .

لنا أن نقول بأن الوحدات اللغوية المفردة للمجموعة الثانية والثالثة وهي داخل النسيج النصي ، مازالت محتفظة بخاصية الاعتبارية ، وكأنه لم يحصل معها انتقال من حيز العلامة الألسنية ، إلى مستوى الوحدة اللغوية . لكم هو باق وجودها رهين الاصطلاح convention داخل أفراد المجموعة الواحدة ، لبوسها التعليل وإن أفضى إلى معنى يعتقد بأنه سليم ، فيتأصل بذلك استعمال العلامات الألسنية انطلاقا من باب الدخول في شراكة مع الماضي ، حيث تُفْتَقَد كل حرية للاختيار .

إن كان الأمر على ما وصف مع المجموعة الثانية والثالثة فما هو شأن المجموعة

الأولى ؟

إن تَقَبَّلَ المجموعة الأولى على نحو ما ذكر يفضي بنا إلى التذكير بالنتيجة التي توصلنا إليها في عنصر " الما قبل والما بعد " والقائمة على إنتاج معنى متضعع ،

وبالتالي يكون المقتطف الذي وردت فيه هذه الوحدات مهدد بالإسقاط المقطعي ، في ظل ذلك ، يستحيل القبول بالوحدات اللغوية المفردة للمجموعة الأولى على نمط غير معلل ، وهكذا ، ما من داع للعودة إلى مثل ذلك الأمر ، والمتبقي أمامنا هو إحداث التجاوز وإخضاع الوحدات اللغوية المفردة إلى مبدأ التعليل ولننظر ما إذا كان هناك مستجد يستحق المتابعة .

في البدء ينبغي خيانة الماضي كمرتكز تعول عليه الوحدات اللغوية المفردة للمجموعة الأولى ، فنتهيأ بذلك الصنيع لتكون عرضة للتبدل ؛ أنها ثمرة في ذاتها ولكن كيف ؟

تتحقق انطلاقتنا من خاصية شجرة الزيتون ، فهي دائمة الاخضرار ، لا يتحول لون أوراقها مهما تغير الظرف المناخي ويتعاقب الفصول الأربعة ، فهي مخضرة على مر الأزمنة مما يسمح بعدها " نواة مضمونية واحدة تتعلق بكل ما ما يحيل على الخصوبة " 16 ، والسؤال : هل يمكن استثمار الخصوبة كخاصية من خصائص شجر الزيتون ومنحها كمعنى جديد للوحدة اللغوية المفردة " الزيتونة " الواردة داخل النص ؟ متجاوزة بذلك معناها الأول والمحدد في نوع معين من الأشجار يعطي ثمارا قد تعصر فنحصل منها على سائل يسمى الزيت ، وهكذا تغدو الزيتونة معنى للخصب والنماء .

أما القبلة ، فهي مقترنة بالمكان ، وهذا الأخير لصيق الكينونة بالدين الإسلامي ، فقد تحدد عنده بالوجهة المضبوطة التي لا حياد عنها ، على أساس أنه الاتجاه الصحيح ، وهنا نتساءل من جديد هل يمكن تبدل القبلة بمعنى الاتجاه الصحيح أو إن شئت القول الطريق الصحيح ؟ وهي محددة بشكل صريح داخل النص .

في حين الشمس تجمع بين القوة كحقيقة تمتلكها للظهور حتى أنه يستحيل أن يغطيها أي شيء ، وبين القدرة على إظهار الأشياء فتتحدد صورها كما هي عليه أي على حقيقتها ، ولن يتكاثرت التعطيم إلا بغيابها ، فكيف لا تكون الشمس معنى للحقيقة استنادا إلى القوة والقدرة بعيدا عن كل مسخ أو تشويه .

الرملية قطب هام لرسم معالم " الصحراء في كيانها الفيزيائي " 17 ، غير أن هذا العنصر يشكل النواة الأصل والمصغرة التي يبنى عليها عالم الصحراء الكبير لا

يحيد عن شكله الصغير، ولا عن حجمه الخفيف الوزن ولا عن لونه المغري، إنه تأسيس لثبوتية الهوية في جوهرها، وللوظيفية في آن واحد، ولذا تقرر بالأصالة.

المقام: استنادا إلى / الرملية / الزيتونة / يبرز معنى المقام فهو أرض من خصائصها أنها تتميز بالأصالة والخصوبة تصلح لأن يمارس عليها سحر الحياة.

إن هذا المتحدث عنه في جزء منه، عندما يدخل عالم التركيب يصبح شيئا مختلفا، فإن كانت العلامة اللسانية تقوم على علاقة غير معللة وبالتالي سميت بالاعتباطية، فإن العلامة نفسها ريثما تدخل عالم التركيب لنسج نص ما فإن الوضع معها يتغير جملة وتفصيلا، ويبان ذلك مركز على النقلة النوعية من حالة اللاتعليل إلى التعليل، وبصورة أوضح من الاصطلاح إلى الاصطناع وبين الموقفين شؤون متباينة.

الاصطناع هو التأسيس للجديد من المعنى على مستوى الوحدة اللغوية المفردة مع احتساب معناها الأول، ينشط الاصطناع في إطار كل حالة فردية، والمنطلق هو العلامة المعلومة، غير أن ما تدل عليه يكون جديدا، بصيغة أخرى مغايرة لكل إنتاج تابع لأي حالة جماعية مؤسسة على الاتفاق والتوافق داخل المجموعة الواحدة؛ لأن ذلك رديف الاصطلاح.

و السؤال ماهي قصدية وحدات المجموعة اللغوية الأولى ؟

3- البناء على القصدية :

في محاولة منا لفهم ما يحصل مع الوحدات اللغوية المفردة للمجموعة للمجموعة الأولى نجد أنفسنا نبني على مبدأ القصدية intentionnalité، في سبيل الوصول إلى فهم حقائق أخرى لبعض عناصر النص التي مازال يكتنفها الغموض والذي يثبت هذا الكلام أن الوحدات اللغوية المفردة قد تجاوزت المعنى الناتج من اعتماد مبدأ الاعتباطية لأنه لا يخدم النص، في الوقت الذي لا تستخدم فيه الوحدات عينها " للإحالة والحديث عن الأشياء الواقعية في العالم " 18، لتكون الزيتون هي تلك الشجرة التي تعطي الزيتون، الرملية هي مجموع الحبيبات المتنوعة الألوان، الشمس ذلك القرص الدائري الملهب في السماء، القبلية الاتجاه الذي يصلي

صوبه المسلمون الصلوات الخمس وحتى النوافل ، إن هذا مرفوض جملة وتفصيلا ؛ لأننا رأينا تضع معنى النص بمجرد قرن هذه الوحدات بمجال الاعتباطية .

إن القصدية المحتكم إليها هنا تتبرأ من غاية " نيابة الكلمات عن الأشياء " 19 ؛ لأن الموضوع مردود عليه مسبقا بتأييد من تأكيدات ويلارد كواين حين " دحض وجهة النظر القائلة : إن للكلمات في لغتنا معاني محددة وثابتة " 20 ، ليحصل التجاوز ويكون قصد الوحدات اللغوية المفردة الوصول إلى معنى الخصوبة والنماء من خلال الزيتونة ، الأصالة والعراقة من خلال الرملية ، الحقيقة باعتبار الشمس ، والتوجه الصحيح من خلال القبلة . والكل يؤطر هذا الموسم بـ " المقام " ، المبحوث عنه على مدار صفحات " الولي الطاهر " غير أنه لا يعثر عليه ، إنه المقام المفقود ، أو بالأصح الأرض المفقودة ، القائمة على العراقة والأصالة والخصب والنماء والتوجه الصحيح ، مفقودة إلى الأبد عبر ربوع الكرة الأرضية من الجزائر إلى القاهرة المعزية ، ثم أفغانستان ، وصولا عند بقع أخرى كثيرة ، إنها الأرض الحلم .

إن قصدية الوحدات اللغوية المفردة " هي إرادة معنى معين " داخل النص ، وهو ما سعت إلى تحديده عناصر المجموعة الأولى ، لتتأطر قاعدة " حدود المعنى هي حدود القصدية " 21 ، فيستقيم وفقها معنى النص ، فيغدو الأمر بحثا عن تناظرات جديدة للوحدات اللغوية المفردة من خلال ، كشف الحجب عن ذاك المسمى المعنى الغائب ، لنستطيع ساعتها فهم من تكون الأرض . حقيقة هي غير مسماة ولكنها أرض بمواصفات خاصة ، مشكلة الهاجس الذي تهفو إليه الحياة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما توصلنا إليه لم يكن إلا من خلال البناء على القصدية ، حيث يسمح بتحديد معاني الوحدات اللغوية المفردة حتى يفهم معنى النص .

إذن الوحدات اللغوية المفردة مصنفة إلى ثلاث مجموعات وما اعتقد أنه يمكن الاستغناء عنه بات من المستحيل تجاوزه ، فتتشابك في ظفيرة واحدة ناسجة هذا السرد ، الذي نعاين فيه أصغر نواة تؤسس تركيبته ، لتكون البداية من الوحدات اللغوية المفردة نفسها ، فنتساءل ، هل كل الوحدات السردية متماثلة ؟ ما السبيل في التمييز بين وحدة وأخرى ؟ إننا على علم بالفروقات بين وحدات المجموعات الثلاث فأبي

تأثير منها ينعكس على السردى المنهك دراسة ؟ وهل تفضي هذه الوحدات إلى نتيجة مغايرة داخل السردى ؟

ثانيا- تصنيفات السرد باعتبار الوحدات اللغوية المفردة :

بما أن تلك الوحدات مستثمرة في مجال الصناعة السردية يمكننا قولبتها ضمن مجال الوحدات السردية ، بعدها أصغر نواة أصل عليها السرد ، وبحسب تصنيف تلك الوحدات اللغوية المفردة ضمن مجموعات اللغوية الثلاث يمكننا تعديده ذلك التصنيف على مستوى السردى لتكون المجموعات السردية ثلاث مجموعات فما الفارق بينها ؟

إن الوحدات اللغوية المفردة للمجموعة الأولى دخلت عالم اصطلاح المعنى ، وذلك بإحداث نقلة نوعية من مستوى المعنى الحاضر إلى المعنى الغائب ولقد عرفنا بالتفصيل كيف جرى ذلك ، وبالتالي ، فهي وحدات سردية اصطلاحية ، يظهر أنها زائدة في النص تفضي إلى إفساد معناه حتى أوشكنا على إسقاطها مقطعيًا من النص إلا أن الحقيقة عكس ذلك تماما ، إذ أن إسقاطها من النص هو إفساد له من حيث لا ندري ، وهكذا نمط من هذه المجموعة هو العود الفقري في صناعة المعنى داخل النسيج النصي ، وقضية التخلي عنه ، قصة مضبوكة لا غير .

أما المجموعة الثانية فلا بأس بالتذكير بوحداتها ، فقد قامت على معناها المتولد من النص الظاهر ولا تزيد على ذلك شيئا فهي لا تصطنع واقعا بل تقرروا واقعا محددا بالاسم والموقع والخصائص فهذه الجزائر تذكر بما هي معروفة به : فهي الوطن الذي استعمرته فرنسا / معروفة ببلد الشهداء / تذكر على أنها الوطن الذي مازال يكرم ثورته وثواره / البلد الذي شهد شعبه مجازر رهيبة من قبل مجموعة ادعت الذي قد ادعته / ... / إنه الواقع الذي عايشته الجزائر تفاصيله حقيقة وبعيدا عن كل تخييل .

أما المجموعة الثالثة ، فقد خصصت لصفات الولي الطاهر وأعماله كسجده التي لا يعلم أحد كم دامت / إغماؤه الفجائي ليجد نفسه كل مرة في موقع / تهليله وتسبيحه حتى يغمر عليه / امتطاؤه العضباء التي لا يعلم أحد من أين جاءت / ... إلخ .

فالمجموعة الأولى تجاوزت الاعتباري من معناها إلى المصطنع منه فهي اصطناعية والثانية تعكس معنى حقيقيا لا تخيل فيه فهي حقيقية ، والثالثة تحاول التضييل حتى لا نصل إلى معاني المجموعة الأولى فهي إيهامية . إذا ، هل يمكننا تقسيم الوحدات السردية لنصنا انطلاقا من خاصية هذه المجموعات الثلاث ؟

تبعاً لتقسيم المجموعات بإمكاننا تعدية الموقف والشروع في تقسيم وحدات السرد إلى ثلاثة أنواع ، ليتسنى لنا الحديث في الفصل الأول عن الوحدات السردية لـ " لولي الطاهر " ، فهناك وحدات سردية اصطناعية ؛ لأن معناها اصطناعي وهو حال المجموعة التي تنتمي إليها ، وإلى جوارها نجد الوحدات السردية الواقعية ؛ لأن معناها كما هو عليه في الواقع ، أما النمط الأخير فيشمل الوحدات السردية الإيهامية لأن معناها إيهامي ، فهي تقف على مدارج التموه بغيّة التضييل أثناء السرد حتى لا نصل إلى المعنى الغائب .

يبقى الواقعي مرادفاً للتاريخي ؛ لأن بعض المقاطع والفقرات لا تملك إلا أن تكون تاريخية / أي / واقعية ، وإن غاب عنها التفصيل في نقل الأحداث فلن تغيب أمانة النقل ، الأحداث التي مرت بها الجزائر ، القاهرة ، أفغانستان ، هي جزء من التاريخ بل هو الواقع كما عاشته تلك البلدان . وبالتالي يمكننا عد الوحدات السردية للمجموعة الثانية تاريخية / واقعية ، وظيفتها الجرد الموضوعي للحقائق كما هي عليه . ونبقى نحن في عالم السرد " نبتكر الكلمات لوصف الوقائع وتسمية الأشياء لكن هذا لا يعني أننا نبتكر الوقائع أو الأشياء " 22 .

في حين يستكين الاصطناعي المحصور في خانة الوحدات السردية الاصطناعية للمجموعة الأولى ، بين الواقعي المباشر والواقعي غير المباشر ، إنه يأخذ طابع العلاماتي ، ففي ظاهره لا وجود ، لا معنى ، يدور في فلك العدمية الوظيفية ، وإن كان يصنع لنفسه حضوراً ، إلا أنه حضور بلا قيمة ، في حين الواقعي غير المباشر لا يتولد إلا من الحضور ، وإن كان يتجاوز مؤسساً للمعنى الغائب عالماً قائماً بذاته تتجاذبه قوى القيمة والوظيفية ، إنه الأصل المقصود " أرض السلام / الأمان " ، هبة " الخصوصية / الأصالة / النماء / العراقة / الاستقامة / المسار الصحيح " ، وهكذا تكون الوحدات السردية الاصطناعية صانعة العلاماتي / العلاماتي داخل النسيج النصي ، مؤثّل سيميائي ، يبرز جفوة ظاهرة للوحدات السردية للمجموعة الثانية ، غير أن الحقيقة

على غير ذلك الميعاد ، إذ يأخذ مسلكه إلى التاريخي بشكل تدريجي و غير مباشر ، ليكون في نهاية المطاف الوصول إلى الواقعي المقنع ، وإن كان أساسه مبدأ حسن اللعب بالعلامات .

أما الوحدات السردية الإيهامية ، فإنها تسعى لتقليد الوحدات السردية الحقيقية غير أنها لا تصل إلى حتمية الوحدات السردية الثانية ، نهجها إيهامي لا تحظى بشيء ، ليكون المتبقى أمامها هو دخول عالم التضليل من أوسع أبوابه ، صحيح أننا نستطيع خوض غمار التجريب مع " الولي الطاهر دونها " لكنها على الرغم من ذلك تبقى نكهة السردى الواقف بين حدود التضليل والامتناع .

الخاتمة

النوعية الأساسية للنص هي الوحدة اللغوية المفردة ، بحسب معناها لا تتعدى التصنيف الثلاثي، وقيمتها لا تنحصر في صناعة معنى النص ولا الجمالي فيه ، وإنما تظهر لها المزية حيث تشمل السردى كوحدة سردية قائمة بذاتها ليتكشف لنا النص مؤطرا بين السرد الاصطناعي والحقيقي والإيهامي ومدى أهمية هذا الكل في صناعة النسيج السردى .

الهوامش :

1. انفتاح النسق اللساني "دراسة في التداخل الاختصاصي" ، محي الدين محسب. دار فرحة، 2003، ص:12 .
2. الظاهرة الشعرية العربية الحضور والغياب، حسين خمري. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص:188 .
3. نقلا عن : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، صلاح فضل .مؤسسة مختار، القاهرة ، 1992 ، ص : 53 .
4. لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي.المركز الثقافي العربي ، المغرب، ط 2، 2006 ، ص: 13. وانظر ما كتبه عبد الجليل مرتاض في هذا الشأن إذ أطلق عليها مصطلح " بنية ما قبلية وبنية ما بعدية " في كتابه الظاهر والمختفي طروحات جدلية في الإبداع والتلقي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2005 ، ص : 24 ، وإن دققنا في الطرحين لا نجد فروقات بينهما

5. البلاغة والسلطة في المغرب أحمد بن محمد بن يعقوب الولاتي ، عبد الجليل ناظم . دار توبقال ، المغرب ، ط1، 2002 ، ص: 75
6. الولي الطاهر ، الطاهر وطار. منشورات الجمل، ألمانيا، ط1 ، 2003 . ص: 11 .
7. م ، ن ، ص ، ص : 11 ، 12 .
8. فلسفة البلاغة، آ.أ. ريتشاردز. ت. سعيد الغانمي وآخر ، افريقيا الشرق ، المغرب، 2002 ص: 73 .
9. الولي الطاهر ، ص ، ص : 13 ، 14 .
10. م ، ن ، ص : 50 إلى غاية ص : 56 .
- 11_ cours de linguistique generale . ferdinand de saussure. Edition talantik. 2002 . bejaia . p 87.
- 12 cours de linguistique generale . p 88 .
13. اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، فاضل ثامر . المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط1 ، 1994 ، ص : 17 .
14. الولي الطاهر : ص : 32 .
15. م ، ن ، ص : 63 إلى غاية ص : 78 .
16. مسالك المعنى دراسة في بعض الأنساق الثقافية العربية ، سعيد بن كراد . دار الحوار ، ط1 ، 2006 ، ص : 41 .
17. السرد الروائي في أعمال ابراهيم نصر الله ، هيام شعيان . دار الكندي ، الأردن ، 2004 ، ص 33 .
18. العقل واللغة والمجتمع في العالم الواقعي ، جون سيرل . ت. سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006. ص : 23 .
19. جون سيرل . ص : 135
20. م ، ن ، ص : 25 .
21. م ، ن ، ص : 221 .
22. م ، ن ، ص : 43 .